كيف يتعامل المفسِّرون اليوم مع قضية بلاغة القرآن

الدكتور عيسى متقي زاده
عضو الهيئة العلمية بجامعة العلامة الطباطبائي

تعدّدت الدراسات والبحوث حول القرآن الكريم، و ليس في هذا الأمر ما يدعو للاستغراب، لأنه مظهر من مظاهر العناية الإلهية بالكتاب العزيز و برهان على ثمرة هذه المعجزة الكبرى لمن نظر فيها وتدبرها.

وربّما التفسير هو أحد أوسع المجالات التي ارتادها العلماء والمفسرون، فاختلفت مناهجهم باختلاف ما استعانوا به من مصادر وما اتّبعوه من طرق.

أمّا بالنسبة إلى قضية الإعجاز فقد تطرق جميع المفسرين فيها. و نحن نذكر هنا آراء مجموعة من المفسِّرين في العصر الحديث في هذا المجال.

التفسير لغةً واصطلاحاً

التفسير لغةً:

دلَّ لفظ التفسير في اللغة على بيان الشيء وإيضاحه و من ذلك الفسر الذي هو كشف المغطى والتفسير مثله، واستفسرته أي فسره لي [1].

و قال الزركشي:

«الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما لكن جعل الأول لإظهار المعنى المعقول و جعل الثاني لإبراز الأعيان للأبصار» [2].

وفي البحر المحيط، قال أبو حيان :

«و يطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، قال ثعلب فسرت الفرس: عريته لينطلق وهو راجع لمعنى الكشف»[٣].

و قد ذهب بعض اللغويين إلى كون أصل التفسير من التفسرة و هي الماء القليل الذي ينظر فيه الأطباء، فكما يكشف الطبيب علة المرض بالنظر فكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية و قصتها و معناها والسبب الذي نزلت فيه[٤].

و قال الجوهري:

«و كل شيء يعرف به تفسير لشيء و معناه فهو تفسرته»[٥].

و في القرآن الكريم و ردت لفظة التفسير مرة واحدة في قوله تعالى:

«ولا يأتونَكَ بِمَثَل إلّا جئناك بالحَقِّ وأَحْسَنَ تفسيراً»[٦].

وهي تدلُّ على معنى الكشف والإبانة والتفصيل [٧].

التفسير اصطلاحاً:

وردت لمعنى التفسير في الاصطلاح عدة أقوال:

فالسيوطي يرى بأنه «كشف معاني القرآن و بيان المراد»[٨].

وأبو طالب التغلبي يقول:

«التفسير، بيان وضع اللفظ إمّا حقيقة وإمّا مجازاً كتفسير الصراط بالطريق، و الصيّب بالمطر»[٩].

أمّا البغوي فيذهب إلى « أنّ التفسير هو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها و قصتها»[١٠].

«الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب»[١١].

فيما يذهب الراغب إلى: «أنّ التفسير هو إظهار المعنى المعقول وهو قد يختص بمفردات الألفاظ الغريبة»[١٢].

و على هذا يمكن اعتبار مفردات الراغب من كتب التفسير[١٣]، و قد عرفه الزركشي بأنه العلم الذي يعرف به فهم كتاب اللّه المنزل على نبيه الكريم ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و بيان معانيه واستخراج أحكامه و حكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والصرف و علم البلاغة وأصول الفقه والقراءات و يحتاج أيضاً لمعرفته أسباب النزول والناسخ والمنسوخ »[١٤].

آراء بعض المفسِّرين المعاصرين

سيد قطب

يرى سيد قطب أنّ البلاغة المعجزة للقرآن تنبع من الجمال الفني والتناسق فيهما. و يقول :

«والذين يدركون بلاغة هذه اللغة، و يتذوقون الجمال الفني والتناسق فيهما، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان، و كذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية، والأصول التشريعية، و يدرسون النظام الذي جاء به هذا القرآن، يدركون أن النظرة فيه إلىٰ تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها، والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات في يسر ومرونة ... كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشري واحد، أو مجموعة العقول في جيل واحد أو في جميع الأجيال. و مثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الأصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه ..»[١٥].

ثم يضيف سيد قطب أن إعجاز القرآن لا ينحصر في اللفظ والتعبير والأداء وإنما هو الإعجاز الشامل المطلق فيقول :

«فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا وفي النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها...
والذين زاولوا فن التعبير، والذين لهم بصر بالأداء الفني، يدركون أكثرهم من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب ، والذين زاولوا التفكير الاجتماعي والقانوني والنفسي، والإنساني بصفة عامة ، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعي في هذا الكتاب أيضاً»[١٦].

ثم يشير إلى أهمية الأداء القرآني وسلطانه العجيب على القلوب، مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع.

إنّ الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض، و ذلك بأوسع مدلول، وأدق تعبير، وأجمله وأحياه أيضاً؛ مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو، ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن واحد، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه، و بحيث لا يجوز الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال. و يبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك

إعجازه أحد، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً، لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال. ومن ثم يتبينون بوضوح أن هـذا المسـتوى فـوق الطاقة البشرية قطعاً»[١٧].

يقول سيد قطب في كتاب «التصوير الفني في القرآن» يجب أن نبحث عن منبع السحر في القرآن في صميم النسق القرآني ذاته.

«إنّنا نقـرأ الآيات المكية في هذه السُوَر فلا نجـد فيهما تشـريعاً مـحكماً، ولا عـلوماً كونية ـ إلّا إشارة خفية في السورة الأُولى لخلق الإنسان من علق ـ ولا نجد إخباراً بالغيب يقع بعد سنين كالذي ورد في سورة «الروم» وهي السورة الرابعة والثمانون.
فأين هو السحر الذي تحدث عنه ابن المغيرة بعد التفكير والتقدير؟

لا بدّ إذن أن السحر الذي عناه كان كامناً في مظهر آخر غير التشريع والغيبيات والعلوم الكونية. لابدّ أنه كامن في صميم النسق القرآني ذاته، لا في الموضوع الذي يتحدث عنه وحده. وان لم نغفل ما في روحانية العقيدة الإسلامية وبساطتها من جاذبية»[١٨].

ثم يذكر سورة «العلق» و سورة «المزمّل» و سورة «المدثر» وهي على العموم من السور الأولى في القرآن في ترتيب النزول.
فلننظر في السورة الثانية: و هي غالباً سورة المزمل ـ وربّما كانت قد سبقتها أوائل سورة «القلم» ـ فلعلها هي التي سمعها الوليد بن المغيرة، فقال قولته المشهورة!
(يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً. إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً. فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً. فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً. السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً)[١٩].

«فها هي ذي صورة للهول تتجاوز الإنسان و نفسه إلى الطـبيعة كـلها، والإنسـان مـن جملتها: (يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً).
فليتمل الخيال ـ إن استطاع ـ صورة ذلك الهول الذي ترتجف له الطبيعة في أكبر مجاليها: الأرض والجبال. وإنا لا نعرّضكم لهذا اليوم إلا بعد أن نرسل لكم رسولاً يحاول هدايتكم، و يشهد عليكم: (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً) وإنكم

لتُدلون بقوتكم، فأين أنتم من فرعون في قوته (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً) أفتريدون أن تؤخذوا إذن كما أخذ فرعون القوى؟ وإذا انتهت هذه الدنيا (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً. السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ) إن صورة الهول هنا لتفطر لها السماء، ومن قبل ارتجفت لها الأرض والجبال، وإنها لتشيب الولدان . وإنه لهول ترتسم صُوَره في الطبيعة الصامتة، وفي الإنسانية الحية، و على الخيال أن يتملى هذه الصور الشاخصة، وإنه ليتملاها فيهتز لها الوجدان، وإنه ليؤكدها تأكيداً : (كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً) فلا شك فيه، ولا مفر منه، وما هذا الإنذار إلّا : (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) [٢٠] وإنّ السبيل إلى اللّه لآمن وأيسر من السبيل إلى هذا الهول العصيب» [٢١].

يرى سيد قطب أن هنالك جوانب متعددة في الإعجاز، من ضمنها الإعجاز الموضوعي، والطابع الربّاني المتميز من الطابع البشري فيه .

«إنّ هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها، فلا يخاطب ذهنها المجرد مرة، وقلبها الشاعر مرة، وحسها المتوفز مرة، ولكنه يخاطبها جملة، ويخاطبها من أقصر طريق،و يطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلها خاطبها.. و ينشىء فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق ، و بهذا الشمول ، وبهذه الدقة وهذا الوضوح، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضاً!» [٢٢].

ثم يذكر أبرز خصائص هذا المنهج في العرض و يقول :

إنّه يمتاز عن كل المناهج :

أوّلاً : بكونه يعرض الحقيقة ـ كما هي في عالم الواقع ـ في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها، وكل جوانبها، وكل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها...و هو ـ مع هذا الشمول ـ لا يعقد هذه الحقيقة، ولا يلفها بالضباب ! بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها...و لم يشأ اللّه ـ سبحانه ـ رحمة منه بالعباد أن يجعل مخاطبتهم بمقومات هذا التصور أو إدراكهم لها، متوقفاً على سابق علم لهم ... إطلاقاً... لأن العقيدة هي حاجة حياتهم الأولى، والتصور الذي تنشئه في عقولهم و قلوبهم هو الذي يحدد لهم طريقة تعاملهم مع الوجود

كله، و يحدد لهم كذلك طريقة اتجاههم لتعلم أي علم، ولطلب أية معرفة، لهذا السبب لم يجعل اللّه إدراك هذه العقيدة متوقفاً على علم سابق»[٢٣].

من أجل ذلك تتلقى الكينونية البشرية هذا الحق، و تحس له سلطاناً ليس لغيره من كل ما تتلقاه من أي مصدر آخر...و هذا أحد أسرار القران المعجزة من الناحية الموضوعية.

ثانياً : بكونه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات «العلمية» والتأملات «الفلسفية» والومضات «الفنية» جميعاً. فهو لا يفرد كل جانب من جوانب (الكل) الجميل المتناسق بحديث مستقل، كما تصنع أساليب الأداء البشرية. وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول، يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب و تتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية. و تتصل فيه الدنيابالآخرة . و حياة الناس في الأرض بحياة الملاء الأعلى.. في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده، لأن الأسلوب البشري عندما يحاول تقليده في هذه الخاصية تبدو فيه الحقائق مختلطة مضطربة غامضة، غير واضحة ولا محدودة ولا منسقة، كما تبدو في المنهج القرآني.

ثالثاً: بكونه ـ مع تماسك جوانب «الحقيقة» وتناسقها ـ يحافظ تماماً على إعطاء كل جانب من جوانبها ـ في كل المتناسق ـ مساحته التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان اللّه ـ وهو الميزان ـ و من ثم تبدو «حقيقة الألوهية» وخصائصها و قضية «الألوهية والعبودية» بارزة مسيطرة محيطة شاملة، حتى ليبدو أن التعريف بتلك الحقيقة وتجلية هذه القضية هو موضوع القرآن الأساسي...[٢٤].

و تشغل حقيقة عالم الغيب ـ بما فيه القدر والدار الآخرة ـ مساحة بارزة ، ثم تنال حقيقة الإنسان، و حقيقة الكون، وحقيقة الحياة، أنصبة متناسقة تناسق هذه الحقائق في عالم الواقع .. و هكذا لا تدغم حقيقة من الحقائق ولا تهمل ، ولا تضيع معالمها في المشهد الكلي الذي تعرض فيه هذه الحقائق ..

رابعاً: بتلك الحيوية الدافقة المؤثرة الموحية ـ مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم ، وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة و جمالاً، لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض ولا الأسلوب البشري في التعبير. ثم هي في الوقت ذاته تعرض في دقة

عجيبة، وتحديدحاسم، ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال ، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة![٢٥]

الطباطبائي

يرى الطباطبائي أن إعجاز القرآن يكون من جميع الجهات فلا ينحصر في بيان القرآن وجزالة أسلوبه فقط.

«فالقرآن آية للبليغ في بلاغته وفصاحته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللاجتماعي في اجتماعه، وللمقننين في تقنينهم، وللسياسين في سياستهم، وللحكام في حكومتهم، و لجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعاً كالغيب والاختلاف في الحكم والعلم والبيان .

و من هنا يظهر أن القرآن يدعي عموم إعجازه من جميع الجهات من حيث كونه إعجازاً لكل فرد من الإنس والجن من عامة أو خاصة أو عالم أو جاهل أو رجل أو أمرأة أو فاضل بارع في فضله أو مفضول إذا كان ذا لب يشعر بالقول ، فإن الإنسان مفطور على الشعور بالفضيلة وإدراك الزيادة والنقيصة فيها، فلكل إنسان أن يتأمل ما يعرفه من الفضيلة في نفسه أو في غيره من أهله ثم يقيس ما أدركه منها إلى ما يشتمل عليه القرآن فيقضي بالحق والنصفة، فهل يتأتي القوة البشرية أن تختلف معارف إلهية مبرهنة تقابل ما أتى به القرآن وتماثله في الحقيقة؟

و هل يمكنها أن تأتي بأخلاق مبينة على أساس الحقائق تعادل ما أتى به القرآن في الصفاء والفضيلة؟ و هل يمكنها أن تشرّع أحكاماً تامة فقهية تحصي جميع أعمال البشر من غير اختلاف يؤدي إلى التناقض مع حفظ روح التوحيد و كلمة التقوى في كل حكم ونتيجته، و سريان الطهارة في أصله و فرعه؟ و هل يمكن أن يصدر هذا الإحصاء العجيب والإتقان الغريب من رجل أمي لم يتربَ إلّا في حجر قوم حظهم من الإنسانية على مزاياها التي لا تحصى، و كمالاتها التي لا تغيّا أن يرتزقوا بالغارات والغزوات و نهب الأموال وأن يئدوا البنات ويقتلوا الأولاد خشية إملاق ويفتخروا بالآباء وينكحوا الأمهات ويتباهوا

بالفجور ويذموا العلم ويظاهروا بالجهل وهم على أنفتهم وحميتهم الكاذبة أذلاء لكل مستذل وخطفة لكل خاطف فيوماً لليمن ويوماً للحبشة و يوماً للروم و يوماً للفرس؟ فهذا حال الحجاز في الجاهلية»[٢٦].

و في سبيل بيان بلاغة القرآن وإعجازه يوضح الطباطبائي كلامه و يقول :

«و هل يجترىء عاقل على أن يأتي بكتاب يدعيه هدىً للعالمين ثم يودعه أخباراً في الغيب مما مضى و يستقبل وفيمن خلت من الأمم وفيمن سيقدم منهم لا بالواحد والاثنين في أبواب مختلفة من القصص والملاحم والمغيبات المستقبلة ثم لا يتخلف شيء منها عن صراط الصدق؟ وهل يتمكن إنسان وهو أحد أجزاء نشأة الطبيعة المادية، والدار دار التحول والتكامل، أن يداخل في كل شأن من شؤون العالم الإنساني و يلقي إلى الدنيا معارف وعلوماً وقوانين وحكماً ومواعظ وأمثالاً وقصصاً في كل ما دقّ وجل ثم لا يختلف حاله في شيء منها في الكمال والنقص و هي متدرجة الوجود متفرقة الإلقاء و فيها ما ظهر ثم تكرر و فيها فروع متفرعة على أصولها؟ هذا مع ما نراه أن كل انسان لا يبقى من حيث كمال العمل ونقصه على حال واحدة»[٢٧].

يقول الطباطبائي في معنى الآية المعجزة في القرآن وما تفسر به حقيقتها:

«ولا شبهة في دلالة القرآن على ثبوت الآية المعجزة و تحققها بمعنى الأمر الخارق للعادة الدال علىٰ تصرف ما وراء الطبيعة في عالم الطبيعه ونشأ المادة، لا بمعنىٰ الأمرالمبطل لضرورة العقل.

وما تمحّله بعض المنتسبين إلى العلم من تأويل الآيات الدالة على ذلك توفيقاً بينها و بين ما يتراءى من ظواهر الأبحاث الطبيعية «العلمية» اليوم تكلف مردود إليه»[٢٨].

يرى الطباطبائي أن الإعجاز يكون في آيات مختلفة والتحدي يشتمل على العموم والخصوص .

«لا ريب في القرآن يتحدى بالإعجاز في آيات كثيرة مختلفة مكية ومدنية تدلّ جميعها على أن القرآن آية معجزة خارقة، حتى أن الآية السابقة أعني قوله تعالى : (وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا على عَبْدِنا فَأْتوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ)[٢٩] الآية، أي من مثل النبي ﴿صلى الله عليه وآله﴾ استدلال على كون القرآن معجزة بالتحدي على إتيان سورة نظيرة سورة من النبي

﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ لا أنه استدلال على النبوة مستقيماً وبلا واسطة، والدليل عليه قوله تعالى في أولها (وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلنا على عَبْدِنا) و لم يقل وإن كنتم في ريب من رسالة عبدنا، فجميع التحديات الواقعة في القرآن نحو استدلال على كون القرآن معجزة خارقة من عند اللّه، والآيات المشتملة على التحدي مختلفة في العموم والخصوص و من أعمها تحدياً قوله تعالى : (قُلْ لئِن اجْتَمَعَت الإنسُ والجنُّ عَلَى أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذا القرآن لا يأتونَ بِمثله ولو كان بَعضُهُم لِبعض ظهيراً) [٣٠] والآية مكية وفيها من عموم التحدي ما لا يرتاب فيه ذو مسكة.

فلو كان التحدي ببلاغة بيان القرآن وجزالة أسلوبه فقط لم يتعد التحدي قوماً خاصاً وهم العرب العرباء من الجاهلين والمخضرمين قبل اختلاط اللسان وفساده، و قد قرع بالآية أسماع الإنس والجن» [٣١].

لا شك أنّ السيد الطباطبائي قد تأثر بكبار البلاغيين وهو معجب بنظرية النظم والبلاغة قائلاً:

«وقد تحدى القرآن بالبلاغة كقوله تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتطعْتُمْ مِن دُونِ اللّهِ إنْ كُنْتُمْ صادقين. فإن لم يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أنما أنْزِلَ بِعِلمِ اللّهِ وأن لا إله إلاَّ هُوَ فَهَلْ أنتُمْ مُسْلِمُون) [٣٢] والآية مكية، وقوله تعالى (أمْ يَقُولون افْتَرَاه قُلْ فَأتُوا بِسورةٍ مثله وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دونِ اللّه إن كُنْتُمْ صادقين بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يحُيطوا بِعلمِهِ ولَمّا يَأتِهِمْ تأويلهُ) [٣٣] والآية أيضاً مكية، وفيها التحدي بالنظم والبلاغة فإن ذلك هو الشأن الظاهر من شؤون العرب المخاطبين بالآيات يومئذ، فالتاريخ لا يرتاب أنّ العرب العرباء بلغت من البلاغة في الكلام مبلغاً لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدمة عليهم والمتأخرة عنهم ووطئوا مؤطئاً لم تطأه أقدام غيرهم في كمال البيان وجزالة النظم ووفاء اللفظ ورعاية المقام وسهولة المنطق. وقد تحدى عليهم القرآن بكل تحد مّما يثير الحمية و يقد نارالأنفة والعصبية. و حالهم في الغرور ببضاعتهم والاستكبار عن الخضوع للغير في صناعتهم مما لا يرتاب فيه، و قد طالت مدة التحدي وتمادي زمان الاستنهاض فلم يجيبوه إلّا بالتجافي ولم يزدهم إلّا العجز و لم يكن منهم إلاّ الاستخفاء والفرار» [٣٤] كما قال تعالى : (ألا إنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدورَهُمْ لِيَسْتَخفُوا مِنْهُ ألا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ

وما يُعْلِنُونَ)[٣٥] و قد مضى من القرون والأحقاب ما يبلغ أربعة عشر قرناً ولم يأتِ بما يناظره آت ولم يعارضه أحد بشيء إلاَّ أخزى نفسه وافتضح في أمره .

ثم يشير إلى التحدي العام لكل فرد في كل مكان وفي كل زمان بخمس نقاط:

١ ـ تحديه بالعلم .

٢ ـ التحدي بمن أنزل عليه القرآن .

٣ ـ تحدي القرآن بالإخبار عن الغيب .

٤ ـ تحدي القرآن بعدم الاختلاف فيه .

٥ ـ التحدي بالبلاغة .

وهنا أقدم فيما يلي إجمالاً من تفسيره حول تحدي القرآن بالعلم وتحديه بعدم الاختلاف فيه :

يقول الطباطبائي :

«وقد تحدى بالعلم والمعرفة خاصة بقوله تعالى :

(ونَزَّلْنَا عَلَيْك الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شيء)[٣٦] و قوله (ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ إلَّا في كِتابٍ مُبينٍ)[٣٧] إلى غير ذلك من الآيات، فإن الإسلام كما يعلمه و يعرفه كل من سار في متن تعليماته من كلياته التي أعطاها القرآن، وجزئياته التي أرجعها إلى النبي ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بنحو قوله : (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)[٣٨] وقوله تعالى : (لتحكم بين الناس بما أراك اللّه)[٣٩]، وغير ذلك متعرض للجليل والدقيق من المعارف الإلهية «الفلسفية» و الأخلاق الفاضلة والقوانين الدينية الفرعية من عبادات ومعاملات وسياسات واجتماعيات و كل ما يمسه فعل الإنسان وعمله، كل ذلك على أساس الفطرة وأصل التوحيد بحيث ترجع التفاصيل إلى أصل التوحيد بالتحليل، و يرجع الأصل إلى التفاصيل بالتركيب[٤٠].

و قد بين بقاءها جميعاً وانطباقها على صلاح الإنسان بمرور الدهور وكرورها بقوله تعالى : (وإنّه لَكِتابٌ عَزيزٌ لا يأتِيه الباطِلُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ)[٤١] و قوله تعالى: (إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وإنّا له لَحافِظونَ)[٤٢].

ثم يشير الطباطبائي إلى تحدي القرآن بعدم الاختلاف فيه :

«و قد تحدى أيضاً بعدم وجود الاختلاف فيه قال تعالى : (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيه اخْتِلافاً كثيراً) [٤٣] فإن مـن الضروري أن النشأة نشأة المـادة و القانون الحاكم فيها قانون التحول والتكامل فما من موجود من الموجودات التي هي أجزاء هذا العالم إلّا وهو متدرج الوجود متوجه من الضعف إلى القوة و من النقص إلى الكمال في ذاته و جميع توابع ذاته ولواحقه من الأفعال والآثار و من جملتها الإنسان الذي لا يزال يتحول و يتكامل في وجوده وأفعاله وآثاره التي منها آثاره التي يتوسل إليها بالفكر والإدراك، فما من واحد منا إلّا و يرى نفسه كل يوم أكمل من أمس ولا يزال يعثر في الحين الثاني على سقطات في أفعاله و عشرات في أقواله الصادرة منه في الحين الأول، وهذا أمر لا ينكره من نفسه إنسان ذو شعور» [٤٤].

هذا الكتاب جاء به النبي ﴿صلى الله عليه وآله﴾ نجوماً وقرأه على الناس قطعاً قطعاً في مدة ثلاث و عشرين سنة في أحوال مختلفة وشرائط متفاوتة في مكة والمدينة في الليل والنهار والحضر والسفر والحرب والسلم في يوم العسرة وفي يوم الغلبة و يوم الأمن و يوم الخوف، ولإلقاء المعارف الإلهية و تعليم الأخلاق الفاضلة وتقنين الأحكام الدينية في جميع أبواب الحاجة، ولا يوجد فيه أدنى اختلاف في النظم المتشابه،كتاباً متشابهاًمثاني، ولم يقع في المعارف التي ألقاها والأصول التي أعطاها اختلاف بتناقض بعضها مع بعض،و تنافي شيء منها مع آخر، فالآية تفسر الآية والبعض يبينُ البعض، والجملة تصدق الجملة كما قال علي﴿عليه السلام﴾ (ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض) «نهج البلاغة». ولو كان من عند غير الله لاختلف النظم في الحسن والبهاء والقول في الشداقة والبلاغة والمعنى من حيث الفساد والصحة ومن حيث الإتقان والمتانة » [٤٥].

النورسي

يرى النورسي أنّ النظم القرآني هو الوجه الأوّل والأظهر من وجوه إعجاز القرآن الكريم ولإظهاره وبيانه ألف كتابه «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز».

و هذا التفسير لا يكاد يفهم ما فيه من المباحث العقلية والمناقشات الفلسفية والمنطقية،

والدلائل الأُصولية، والإشارات، والنكت البلاغية إلّا الخواص، و يبدو أنه لم يكتب إلّا لهم وحدهم دون العامة. كما يؤكدها بقوله : «إنّ هذا التفسير القيم بين دفتيه نكت بلاغية دقيقة، قد لا يفهمها كثيرٌ من القراء ولا يعيرون لها اهتمامهم»[٤٦].

و يكشف النورسي عن هدفه من هذا المصنف بقوله : «إنّ مقصدنا من هذه الإشارات تفسير جملة من رموز نظم القرآن، لأن الإعجاز يتحلى من نظمه، وما الإعجاز الزاهر إلا نقش النظم »[٤٧].

وفي سبيل بيان بلاغة القرآن يوضح النورسي التناسب بين الآيات و علاقة لاحقها بسابقها، وعلاقة كل جملة بأختها، و علاقة كلمات الجملة الواحدة فيما بينها، وموقع كل كلمة قرآنية، والسر في التعبير بها دون غيرها من الكلمات القريبة منها، و هو بذلك يريد أن يؤكد أن « أدق وجوه إعجاز القرآن الكريم ما في بلاغة نظمه »[٤٨].

إنّ تأثر النورسي بكبار البلاغيين واضح من خلال كتاباته، فهو ينقل عن كتابي عبدالقاهر الجرجاني «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» في المباحث البلاغية، و هو معجب بنظريته في النظم أي إعجاب. بل إنّه يبتني آراءه البلاغية ويرجحها على غيرها من الآراء[٤٩].

ويرى بديع الزمان أن البلاغة المعجزة للقرآن نبعت من جزالة نظم القرآن و حسن متانته، ومن بداعة أساليبه وغرابتها وجودتها، ومن براعة بيانه وتفوقه وصفوته، ومن قوة معانيه وصدقها، ومن فصاحة ألفاظه و سلاستها.

و يقول : «و بهذه البلاغة الخارقة تحدى القرآن الكريم، منذ ألف وثلاثمائة من السنين، أذكى بلغاء بني آدم وأبرع خطبائهم وأعظم علمائهم، فما عارضوه، وما حاروا ببنت شفة مع شدة تحديه إياهم، بل خضعت رقابهم بذل، و نكسوا رؤوسهم بهوان، مع أن من بلغائهم من يناطح السحاب بغروره »[٥٠].

ثم يشير إلى حكمة الإعجاز في بلاغة القرآن بخمس نقاط:

١ ـ الجزالة الخارقة في نظم القرآن .

٢ ـ البلاغة الخارقة في معنى القرآن .

٣ ـ البداعة الخارقة في أسلوب القرآن .

٤ ـ الفصاحة الخارقة في لفظ القرآن .

٥ ـ براعة البيان في القرآن .

وهنا أقدم فيما يلي مثالين من تفسيراته التي تؤكد تمكن النورسي من بيان أسرار النظم ونجاحه في إبراز إعجاز الحلقة الواحدة في القرآن الكريم ضمن سياقها.

المثال الأوّل في قوله تعالى : (ويقِيمُونَ الصَّلوةَ)[٥١].

يقول النورسي :

اعلم أن وجه النظم أظهر من الشمس في رابعة النهار. وإنّ في تخصيص «الصلاة» من بين حسنات القالب إشارة إلى أنها فهرسة كل الحسنات وأنموذجها ومَعْكسها. كالفاتحة للقرآن ، والإنسان للعالم، لاشتمالها على نوع صوم وحج و زكاة و غيرها، ولاشتمالها على أنواع عبادات المخلوقات، الفطرية والاختيارية من الملائكة الراكعين الساجدين القائمين، ومن الحجر الساجد والشجر القائم ، والحيوان الراكع ..

ثم إنه أقام «يقيمون» مقام «المقيمين» لإحضار تلك الحركة الحياتية الواسعة والانتباه الروحاني الإلهي في العالم الإسلامي إلى نظر السامع. ووضع تلك الوضعية المستحسنة و الحالة المنتظمة من نواحي نوع البشر نصب عين الخيال، ليهيج و يوقظ ميلان السامع للتأسّي، إذ من تأمل في تأثير النداء بالآلة المعروفة[٥٢] في نفرات العسكر المنتشرين المغمورين بين الناس وتحريك النداء لهم دفعة، وإلقاء انتباه فيهم، وإفراغهم في وضع مستحسن، وجمعهم تحت نظام مستملح يرى في نفسه اشتياقاً لأن ينساب إليهم. فهكذا الأذان المحمدي بين الإنسان في صحراء العالم (ولِلّه المَثَلُ الأعلى ...).

ثمّ يضيف النورسي قائلاً:

وإنما لم يقتصر في مسافة الإيجاز على «يصلّون» بل أتّمها بـ (يقيمون الصلاة) للإشارة إلى أهمية مراعاة معاني «الإقامة» في الصلاة من تعديل الأركان، والمداومة، والمحافظة، والجد، وترويجها في سوق العالم. تأمل !

ثم إنّ الصلاة نسبة عالية، ومناسبة غالية، و خدمة نزيهة بين العبد و سلطان الأزل، فمن شأن تلك النسبة أن يعشقها كل روح .. وأركانها متضمنة للأسرار التي شرحها أمثال

«الفتوحات المكية» فمن شأن تلك الأسرار أن يحبها كل وجدان .. وإنما دعوة صانع الأزل إلى سرادق حضوره خمس دعوات في اليوم والليلة لمناجاته التي هي في حكم المعراج . فمن شأنها أن يشتاقها كل قلب ... و فيها ادامة تصور عظمة الصانع في القلوب وتوجيه العقول إليها لتأسيس إطاعة قانون العدالة الإلهية، وامتثال النظام الربّاني. والإنسان يحتاج إلى تلك الإدامة من حيث هو إنسان لأنه مدنّي بالطبع ..فيا و يل من تركها! و يا خسارة من تكاسل فيها! ويا جهالة من لم يعرف قيمتها! فسحقاً وبعداً وأفّاً وتُفّاً[٥٣] لنفس من لم يستحسنها[٥٤].

المثال الثاني (ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [٥٥].

وجه النظم : إنه كما أن الصلاة عمادالدين وبها قوامه ؛ كذلك قنطرة الإسلام و بها التعاون بين أهله .

ثم إن من شروط أن تقع الصدقة موقعها اللائق :

أن لا يسرف المتصدق فيقعد ملوماً... وأن لا يأخذ من هذا ويُعطي لذاك ، بل من مال نفسه .. وأن لا يمنّ فيستكثر .. وأن لا يخاف من الفقر..وأن لا يقتصر على المال ، بل بالعلم والفكر والفعل أيضاً..

وأن لا يصرف الآخذ في السفاهة، بل في النفقة والحاجة الضرورية.

فلإحسان هذه النكت، واحساس هذه الشروط تصدّق القرآن على الأفهام بإيثار (ومّما رزقناهم ينفقون) على «يتصدّقون » أو « يزكّون » وغيرهما؛ إذ أشار بـ«من » التبعيض إلى ردّ الإسراف ..و بتقديم «مّما» إلى كونه من مال نفسه ..و بـ«رزقنا» إلى قطع المنة . أي : إن اللّه هو المعطي وأنت واسطة ..

وبالإسناد إلى «نا» إلى : (لا تخف من ذي العرش إقلالاً)[٥٦].. وبالإطلاق إلى تعميم التصدق للعلم والفكر و غيرهما.

وبمادة «ينفقون » إلى شرط صرف الآخذ في النفقة والحاجات الضرورية»[٥٧].

ولا يكتفي النورسي ببيان هذه النكت، بل يتجاوز إلى الغوص في فلسفة التشريع الإسلامي الذي يمثل حلاً لمشاكل مجتمعنا الاسلامي والانساني و يقول :

الزكاة جسر يغيث المسلم أخاه المسلم بالعبور عليها؛ إذ هي الواسطة للتعاون المأمور به . بل هي الصراط في نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر. وهي الرابطة لجريان مادة الحياة بينهم .

اعلم أن شرط انتظام الهيئة الاجتماعية أن لا تتجافى طبقات الإنسان ، وأن لا تتباعد طبقة الخواص عن طبقة العوام، والأغنياء عن الفقراء بدرجة ينقطع خيط الصلة بينهم. مع أن بإهمال وجوب الزكاة وحرمة الربا انفجرت المسافة بين الطبقات ، وتباعدت طبقات الخواص عن العوام بدرجة لا صلة بينهما. ولا يفور من الطبقة السفلى إلى العليا إلا صدى الاختلال و صياح الحسد، وأنين الحقد والنفرة بدلاً عن الاحترام والإطاعة والتحبب، ولا يفيض من العليا على السفلى بدل المرحمة والإحسان والتلطيف إلا نار الظلم والتحكم ، ورعد التحقير . فأسفاً! ..لأجل هذا قد صارت «مزيةُ الخواص التي هي سبب التواضع والترحم سبباً للتكبر والغرور. و صار«عجزالفقراء» و «فقر العوام» اللذان هما سببا المرحمة عليهم والإحسان إليهم سبباً لإسارتهم و سفالتهم .. وإن شئت مشاهداً فعليك بفساد ورذالة حالة العالم المدنّي، فلك فيه شواهد كثيرة. ولا ملجأ للمصالحة بين الطبقات والتقريب بينها الّا جعل الزكاة التي هي ركن من أركان الاسلامية . دستوراً عالياً واسعاً في تدوير الهيئة الاجتماعية»[٥٨].

ومن هذه النماذج و غيرها يتضح لنا أن النورسي لم يكتف بذكر أسرار النظم القرآني وإنّما حاول استثمار هذه الأسرار لصالح الأمة الإسلامية وقضاياه الواقعية.

الشعراوي

يرى الشعراوي إعجاز القرآن في اللغة والبلاغة، فإنّه تحدّى العرب و غير العرب جميعاً.

«و القرآن نزل يتحدّى العرب في اللغة والبلاغة.. و لكن لأنه دين للناس جميعاً..فلا بدّ أن يتحدى غير العرب فيما نبغوا فيه .. و لذلك نزل متحدياً لغير العرب وقت نزوله .. فقد حدثت حرب بين الروم والفرس و قت نزول القرآن .. وكانت الروم والفرس تمثلان في عصرنا الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي..كانا أعظم وأقوى دولتين في ذلك

العصر.. حدثت الحرب بينهما وانهزم الروم ..وإذا بالقرآن ينزل بقوله تعالى :
(الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ للّهِ الأمرُ مِنْ قَبْلُ وِمِنْ بَعْدُ ويَوْمَئِذٍ يَفْرحُ المؤمِنُونَ) [٥٩].

لو أن هذا القرآن من عند رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فما الذي يجعله يدخل في قضية كهذه؟ لم يطلب أحد منه أن يدخل فيها.. وكيف يغامر رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا يتغير ولا يتبدل ..بإعلان نتيجة معركة ستحدث بعد سنين ..و ماذا كان يمكن أن يحدث لقضية الدين كله لو أن الحرب حدثت وانتصر الفرس مرة أخرى ..أو أن الحرب لم تحدث و توصل الطرفان إلى صلح ؟ إنها كانت ستضيع قضية الدين كله ..و لكن لأن اللّه سبحانه و تعالى هو القائل و هو الفاعل جاءت هذه الآية كمعجزة لغير العرب وقت نزول القرآن و حدثت المعركة فعلا وانتصر فيها الروم كما أخبر القرآن الكريم» [٦٠].

الطريقة التي سلكها الشعراوي في بيان إعجاز القرآن فهي أن التحدي ليس متصورا على الإخبار بالمغيبات أو العلم الكوني.. بل يعتقد أن القرآن يخاطب الملكات الخفية في النفس وهذه الملكات تنفعل حين تسمع القرآن فتلين القلوب و يدخل الايمان إليها.
«لقد تنبه الكفار إلى تأثير القرآن الكريم في النفس البشرية... تأثيراً لا يستطيع أن يفسره أحد.. و لكنه يجذب النفس إلى طريق الإيمان و يدخل الرحمة في القلوب .

لذلك كان أئمة الكفر يخافون أكثر ما يخافون .. من سماع الكفار للقرآن و يحاولون منع ذلك بأي وسيلة ..و يعتدون على من يتلو القرآن .. ولو أن هذا القرآن لم يكن كلام اللّه وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفية في النفس البشرية.. ما اهتم أئمة الكفر أن يستمع أحد للقرآن أو لا يستمع ..ولكن شعورهم بما يفعله كلام اللّه .. جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط بل قالوا كما يروي لنا القرآن الكريم :
(وقال الّذينَ كَفَروا لا تَسْتَمِعُوا لِهذَا القرآن وأَلْغَوا فيه لَعَلَّكم تَغْلِبون) ٦١.

و هكذا نعرف أنه حتى أهل الكفر كانوا لا يمنعون سماع القرآن فقط..بل يطلبون من أنصارهم أن يلغوا فيه، ومعناها (يشوشرون) .. و لا يمكن أن يكون هذا مسلكهم وتلك

هي طريقتهم إلّا خوفاً مما يفعله القرآن في كسب النفس البشرية إلى الايمان .. إن مجرد تلاوته تجذب النفس الكافرة إلى منهج اللّه »[٦٢].

و يقول مصطفى صادق الرافعي في هذا المجال :

«و هذا بعض ما أيأسهم من المعارضة تيقُّناً أنه لا قبل لهم بها، واستبصاراً في حقيقة هذا الكلام وأنه مما لا يَسْتَشْري الطمع فيه وأنه وحيٌ يوحى ، وهو عينه أيضاًبعض ما اجتذبهم إليه وعَطَفَهم عليه حتى كان بلغاؤهم يستمعونه و تصغي إليه أفئدتهم ثم يتلاومون على ذلك كما مَرَّ في خبر أبي جهل و صاحبيه . و حتى قالوا كما حكى اللّه عنهم وأَسْجَلَهُ عليهم في كتابه ليكون ثبتاً تاريخياً للعقل الإنساني:

(لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه لعلكم تغلبون) فجعلوا كل أمرهم وأمره في آذانهم كما ترى وما هي إلّا سبيل الكلام إلى النفس وكأنهم أقروا أنهم المغلوبون ما سمعوه، و ليس في البيان عما نحن فيه أبين من هذا إخباراً عن الحقيقة أو حققه من الخبر أو خبراً حقا[٦٣].

و هكذا كان الكفار يحاولون إهاجة مشاعر الكفر في القلوب حتى لا يدخلها القرآن. و يشير الشعراوي إلى أن القرآن الكريم لأنه كلام اللّه ... فإن له تأثيراً خاصاً في النفس البشرية..حتى أن الكفار كانوا يسترقون سماع القرآن من وراء بعضهم البعض ..وكان هذا أول إعجاز لأن القرآن الكريم هو كلام اللّه تبارك وتعالى [٦٤].

فقد جاء الوليد بن المغيرة المخزومي إلى النبي﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه ، فقال : يا عمّ، إنّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوك لئلا تأتي محمداً لتعرض لما قاله . فقال الوليد:

قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال أبوجهل فقل فيه قولاً يبلّغ قومك أنك كاره له. قال وماذا أقول؟ فواللّه ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، واللّه ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، و واللّه إن لقوله حلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنه لَمُثمر أعلاه مُغْدِق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليَحْطِمُ ما تحته، قال :

لا يرضى عنك قومُك حتى تقول فيه، قال :

فدعني حتى أفكر. فلمّا فكَّر قال :

«هذا سحرٌ يؤثر عن غيره »[٦٥].

والشعراوي يفصل القول في باب الإعجاز و يقول :

إنّ القرآن لم ينزل معجزة محدودة بل هو معجزة حتى قيام الساعة.

« القرآن هو كلام اللّه، والكون هو خلق اللّه .. و لذلك جاء القرآن يُعْطي إعجازاً لكل جيل فيما نبغوا فيه .. إذا أخذنا العلوم الحديثة التي اكتشفت في القرن العشرين وأصبحت حقائق علمية.. نجد أن القرآن الكريم قد أشار إليها بإعجاز مذهل... بحيث أن اللفظ لا يتصادم مع العقول وقت نزول القرآن . ولا يتصادم معها بعد تقدم العلم واكتشاف آيات اللّه في الأرض ..ولا يقدر على هذا الإعجاز المذهل إلّا اللّه سبحانه وتعالى .. اِقرأ مثلاً قول الحق تبارك سبحانه و تعالى :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)[٦٦] والمدّ معناه البسط... و عندما نزل القرآن الكريم بقوله تعالى :

« والأرض مددناه» لم يكن هذا يمثل مشكلة .. للعقول التي عاصرها نزول القرآن الكريم. فالناس ترى أن الأرض ممدودة .. و القرآن الكريم يقول :

«والأرض مددناه » ..و تقدم العلم و عرف الناس أن الأرض كروية ..

وانطلق الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض على هيئة كرة..

هنا أحست بعض العقول بأن هناك تصادمات بين القرآن الكريم والعلم ..و نقول لهم أقال اللّه سبحانه و تعالى أي أرض تلك المبسوطة أو الممدودة؟ ... لم يقل و لكنه قال الأرض على إطلاقها ..أي كل مكان على الأرض ترى فيه الأرض أمامك مبسوطة.

إذا نزلت في القطب الشمالي تراها مبسوطة ..وإذا كنت في القطب الجنوبي تراها مبسوطة .. و عند خط الاستواء تراها مبسوطة.. وإذا سرت من نقطة على الأرض وظللت تسير إلى هذه النقطة فالأرض أمامك دائماً مبسوطة..و لا يمكن أن يحدث هذا أبداً إلّا إذا كانت الأرض كروية..فلو أن الأرض مثلثة أو مربعة أو مسدسة..أو على شكل هندسي آخر.. لوصلت فيها إلى حافة ليس بعدها شيء ..و لكن لكي تكون الأرض مبسوطة أمامك في أي مكان تسير فيه لابد أن تكون على هيئة كرة»[٦٧].

ويُبيِّن الشعراوي أن إعجاز القرآن يتفق مع قدرات العقول ..و قت نزول القرآن الكريم ..فإذا تقدم العلم ووصل إلى حقيقة لما كان يعتقده الناس ..تجد أن آيات القرآن تتفق مع

الحقيقة العلمية اتفاقاً مذهلاً . ولا يقدر على ذلك إلّا اللّه سبحانه وتعالى .

ثم يقارن الآيات القرآنية والأحاديث النبويةو يقول :

«إن أسلوب القرآن يختلف عن أسلوب الأحاديث النبوية وحتى الأحاديث القدسية.

«إذن فاختلاف القرآن الكريم والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية..أكبر دليل على أن القرآن والأحاديث القدسية ليست من عند رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾..لأنّ الشخصية الأسلوبية لأي إنسان هي شخصية مميزة..و لا يمكن أن ينفعل أحد بأحداث الحياة.. فيكتب كل مرة بأسلوب مختلف تماماً عن الأسلوب الآخر..أو يكتب اليوم بأسلوب و غداً بأسلوب ...ثم يعود بعد ذلك إلى الأسلوب الأول .. إنه إذا قرأ أحدهم القرآن نقول هذا قرآن، وإن تلا أحدهم حديثاً قدسياً نقول هذا حديث قدسي.. وإذا قال أحدهم حديثاً نبوياً قلنا حديث نبوي.. و لكل إنسان منا شخصية أسلوبية واحدة .. إذا حاول أن يخرج منها فإنها تغلبه ..و الفروق الهائلة في الأساليب بين القرآن والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية أكبر دليل على صدق رسالة محمد ﴿صلى الله عليه وآله﴾ [٦٨].

ابن عاشور

وأمّا ابن عاشور فيقول في إعجاز القرآن :

قد بلغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغاً تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله .

«و قد بدا لي دليل قوي على هذا و هو بقاء الآيات التي نسخ حكمها و بقيت متلوة من القرآن ومكتوبة في المصاحف، فإنها لما نسخ حكمها لم يبق وجه لبقاء تلاوتها و كتبها في المصاحف إلّا ما في مقدار مجموعها من البلاغة بحيث يلتئم منها مقدار ثلاث آيات متحدٍّ بالإتيان بمثلها، مثال ذلك آية الوصية في سورة العقود.

وإنّما وقع التحدي بسورة آي وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام وصوغه بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام وخواتمه، وانتقال الأغراض، والرجوع إلى

الغرض، و فنون الفصل، والإيجاز والإطناب، والاستطراد والاعتراض »[٦٩].

ثمّ يشير ابن عاشور إلى آراء العلماء في هذا الصدد و يذكر خلاصة أقوالهم، ويُبيِّن اهتمام العلماء ببيان وجوه الإعجاز لأنه نبع من مُخْتَزن أصل كبير من أصول الإسلام وهو كون القرآن المعجزة الكبرى للنبي و كونه المعجزة الباقية وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول معانيه تحدياً صريحاً.

قال تعالى :

(و قَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّه قُلْ إنَّما الآياتُ عِنْدَ اللّهِ وإنَّما أنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أنَّا أنْزَلْنَا عَلَيْك الكتابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ) [٧٠].

يقول ابن عاشور:

> «وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعاً إلى ثلاث جهات :
>
> الجهة الأولى : بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما يفيده أصل اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لايدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم .
>
> الجهة الثانية:
>
> ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهوداً في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.
>
> الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مّما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض »[٧١].

ثم يذكر ابن عاشور أن هناك آراء تعد الجهة الرابعة من وجوه إعجاز القرآن و هي ما انطوىٰ عليه من الإخبار عن المغيبات مما دل على أنه من علام الغيوب ويبدي رأيه أن هذا النوع من وجوه الإعجاز لا يشمل الجميع وانما يختص بالعرب الأميين .

«فإعجاز القرآن من الجهتين الأولى والثانية متوجه إلى العرب، إذ هو معجز لفصحائهم و

خطبائهم و شعرائهم مباشرة، و معجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعي عليه هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم، ثم هو بذلك دليل على صدق المنزل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغا لا يُستطاع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار، و لمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ. فإعجازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلي، وإعجازه لغيرهم دليل إجمالي.

ثم قد يشارك خاصة العرب في إدراك إعجازه كلّ من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم وآدابهم من أئمة البلاغة العربية في مختلف العصور»[٧٢].

«والقرآن معجز من الجهة الثالثة للبشر قاطبة إعجازاً مستمراً على ممر العصور، وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين : إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين ، لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمّة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحِكْمية والعلمية والأخلاقية، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعاني وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك»[٧٣].

الهوامش

١ـ ابن فارس : مقايس اللغة، مطبعة الحلبي، القاهرة ، ج ٤ ، ص ٥٤. انظر لسان العرب لابن منظور، مادة (فسر).

٢ـ الزركشي، بدرالدين : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى الحلبي، ط ٢، ١٣٩٢هـ ج ٢، ص ١٤٨.

٣ـ أبو حيان : البحر المحيط، طبعة مصورة عن طبعة مولاي عبدالحفيظ سلطان المغرب، ١٣٠٨، هـ الرياض، ج ١، ص ١٢.

٤ـ انظر التفسير البغوي، مطبعة التقدم العلمية، القاهرة ، ١٣٣١هـ، ط ١ ، ج ١ ، ص ١٢.

٥ ـ الجوهري : تاج اللغة ، ج ١ ، ص ٣٨٢.

٦ـ الفرقان : ٣٣.

٧ـ الراغب الاصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق و ضبط : محمد سيد كيلاني، المكتبة المرتضوية طهران، مادة فسر، ص ٣٨٠.

٨ ـ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م، ٤، ص ١٩٤.

٩ ـ المصدر نفسه، ص ١٩٢.

١٠ـ البغوي الفراء: معالم التنزيل بهامش الخازن، مطبعة التقدم العلمية، القاهرة، ١٣٣١هـ، ج ١ ، ص ١٢.

١١ـ أبوحيان الأندلسي: البحرالمحيط، ج ١، ص ٩٢.

١٢ـ الراغب الاصفهاني : المفردات في غريب القرآن، ص ٣٨٠.

١٣ ـ عبدالله أحمد سامي: الاتجاهات التفسيرية في القرن السادس الهجري، مخطوطة دار العلوم، ١٩٨١م، ص ٥.

١٤ ـ الزركشي، بدرالدين : البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٣.

١٥ـ قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ج ٣، ص ١٧٨٥.

١٦ ـ المرجع نفسه، ص ١٧٨٦.

١٧ـ قطب، سيد: في ظلال القرآن، ص ١٧٨٧.

١٨ ـ قطب، سيد: التصويرالفني في القرآن. دار الشروق، القاهرة، د . ت ، ص ١٧.

١٩ـ المزمل : ١٨ـ ١٤.

٢٠ـ الإنسان : ٢٩.

٢١ـ قطب، سيد: التصوير الفني في القرآن، ص ١٩و ٢٠.

٢٢ـ قطب، سيد: في ظلال القرآن، مج ٣، ص ١٧٨٨.

٢٣ـ راجع القسم الأول من كتاب «خصائص التصور الإسلامي و مقوماته» ص ١٣٤ ـ ١٧٠، دار

الشروق.
٢٤ ـ انظر في ظلال القرآن، ص ١٧٥٢ ـ ١٧٥٥.
٢٥ـ قطب، سيد: في ظلال القرآن، مج ٣، ص ١٧٩٠.
٢٦ـ الطباطبايي، السيد محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ط ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص ٦٢.
٢٧ـ الطباطبايي: الميزان في تفسير القرآن مج ١، ص ٦٣.
٢٨ ـ انظر علوم القرآن عند المفسرين، لمركز الثقافة والمعارف القرآنية بقم، مج ٢، ص ٣٨٣.
٢٩ ـ البقرة: ٢٢.
٣٠ـ الإسراء: ٨٨.
٣١ ـ الميزان، ج ١، ص ٦١.
٣٢ ـ هود: ١٣ ـ ١٤.
٣٣ـ يونس: ٣٨ ـ ٣٩.
٣٤ـ الميزان، ج ١، ص ٧٠.
٣٥ ـ هود: ٥.
٣٦ ـ النحل: ٨٩.
٣٧ـ الأنعام: ٥٩.
٣٨ـ الحشر: ٧.
٣٩ ـ النساء: ١٠٥.
٤٠ـ الطباطبايي: الميزان، مج ١، ص ٦٤.
٤١ ـ السجدة: ٤٢.
٤٢ ـ الحجر: ٩.
٤٣ ـ النساء: ٨٢.
٤٤ـ الطباطبايي: الميزان في تفسير القرآن، مج ١، ص ٦٨.
٤٥ ـ الطباطبايي: الميزان في تفسير القرآن، مج ١، ص ٦٨.
٤٦ـ النورسي، بديع الزمان: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، شركة سوز، مصر، ط٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤.
٤٧ ـ المرجع نفسه، ص ٢٣.
٤٨ـ النورسي، إشارات الإعجاز ص ٢٢٦.
٤٩ـ انظر النورسي، إشارات الإعجاز ١١٣ ـ ١١٨.
٥٠ ـ النورسي: الكلمات، ص ٤٢٤.
٥١ ـ البقرة: ٣.

٥٢ ـ البوق العسكري.
٥٣ ـ الأف والتف : وسخ الأذن والأظفار، ثم استعملا عند كل شيء يضجر منه (الزاهر للأنباري).
٥٤ ـ النورسي : إشارات الإعجاز، ص ٥٢.
٥٥ ـ البقرة : ٣.
٥٦ ـ أصل الحديث : عن عبدالله بن مسعود ﴿رضي الله عنه﴾، قال : دخل النبي ﴿صلى الله عليه وآله﴾ على بلال و عنده صبُرة من تمر، فقال : «ما هذا يا بلال ؟» قال : أعدُّ ذلك لأضيافك، قال : «أما تخشى أن يكون لك دُخان في نار جهنم ؟ ! أنفق بلال ! ولا تخش من ذي العرش إقلالا».
قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه البزاز بإسناد حسن والطبراني في الكبير و ذكر فيه زيادة. والحديث أورده الهيثمي في المجمع و قال : إسناده حسن وحسَّنه الحافظ ابن حجر. والحديث صحيح بطرقه. (صحح الجامع الصغير رقم ١٥٠٨ و صحيح الترغيب برقم ٩١٢، والمشكاة برقم ١٨٨٥).
٥٧ ـ النورسي : إشارات الإعجاز، ص ٥٣.
٥٨ ـ المصدر نفسه، ص ٥٤ ـ ٥٥.
٥٩ ـ الروم : ١ ـ ٤.
٦٠ ـ الشعراوي : تفسير الشعراوي، مج ١، مدخل ص ١٢.
٦١ ـ فصلت : ٢٦.
٦٢ ـ الشعراوي : تفسير الشعراوي، مج ١، مدخل ص ١٠.
٦٣ ـ الرافعي، صادق : إعجاز القرآن، ص ٣١٤.
٦٤ ـ الشعراوي : تفسير الشعراوي، مج ١، مدخل، ص ١١.
٦٥ ـ راجع تاريخ الآداب العرب، للرافعي، الجزء الأول، باب الرواية.
٦٦ـ ق : ٧.
٦٧ ـ الشعراوي : تفسير الشعراوي، مج ١، مدخل ١، ص ١٤.
٦٨ـ المرجع نفسه، ص ٢٢.
٦٩ ـ ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشرو التوزيع ، تونس ، ١٩٨٤م، مج ١، ص ١٠٤.
٧٠ ـ العنكبوت : ٥٠ ـ ٥١.
٧١ ـ ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، ص ١٠٤.
٧٢ ـ المرجع نفسه، ص ١٠٥.
٧٣ ـ المرجع نفسه، ص ١٠٥.